مقدمة

لم يحدث فى تاريخ الأدب العالمى أن ظهر تيار بقوة جارفة، وأثار من المعارك والتداعيات ما جعله يشكل ظاهرة عالمية تركت خطوطًا غائرة فى الخرائط الأدبية لبلاد كثيرة ومختلفة التوجهات السياسية والاجتماعية، مثل تيار الأدب النسوى الذى رفض كل الأشكال الأدبية والمضامين الفكرية السابقة، التى تناولت الوضع الإنسانى للمرأة بصفة عامة، والوضع المحلى لها بصفة خاصة.

لكن هذه القوة الجارفة اعتورتها عراقيل وعقبات وأزمات، أصابتها فى بعض المراحل بأعراض هزال وتناقض وانتكاس، لكنها كانت تستعيد عافيتها ولو بدرجة منقوصة لكى تواصل مسيرتها على خريطة الأدب العالمى. ومع التناقضات الداخلية التى اعتورت المسيرة، تضاعفت أعراض الهزال والتخبط بحيث دخل الأدب النسوى فى أزمة عالمية بمعنى الكلمة، تمثلت فى سلبيات مرضية حادة، كانت فى مقدمتها التيارات المتطرفة، التى حولت مجرى الأدب النسوى من تأليف الأعمال المسرحية والروائية، التى تجسد محاولات المرأة لترويض الرجل إلى العمل على إلغاء وجوده تمامًا من حياتها. وتحمست الناقدات النسويات لهذا الاتجاه لدرجة أنهن أطلقن عليه مصطلح «الاتجاه الثورى»، أو «الأنوثة الجديدة»، أو «ما بعد النسوية».

وكانت بداية هذه الأزمة من الولايات المتحدة الأمريكية، التى يبدو أنها أصبحت مصدرًا للأزمات التى تجتاح العالم بأسره، مثل الأزمة المالية العالمية التى بدأت فى سبتمبر ٢٠٠٨ مع انهيار سوق العقارات ولاتزال تداعياتها تتدفق إلى الآن، وإن كانت أزمة الأدب النسوى قد سبقت، عندما بدأت فى العقد الأخير من القرن العشرين. ونظرًا لأن عددًا كبيرًا من الكاتبات والأديبات أردن أن يلحقن بركب الاتجاه الثورى لعلهن ينلن الشهرة التى حازت عليها رائداته، فإن نتيجة هذا الاندفاع، كان انتشار الأزمة مثل النار فى الهشيم، فامتدت من أمريكا إلى المكسيك وكندا وبريطانيا وفرنسا وهولندا وإسبانيا وبولندا وألمانيا والنمسا وأستراليا ونيوزيلندا، ثم الهند التى كانت الرائدة لهذا الاتجاه فى

آسيا بأسرها. ولذلك ستنقسم فصول هذا الكتاب طبقًا لأهمية الدور الذى نهضت به كل أمة أو دولة فى مجال الأدب النسوى، فى محاولة لرسم خريطة عالمية لمعالم الأزمة التى أصبحت تهدده فى الصميم، نظرًا للحساسية البالغة المرتبطة بمضمون هذا الأدب وشطحات ما بعد الحداثة التى كادت أن تحطم شكله الروائى أو المسرحى.

أما فى أفريقيا فكانت المرأة ضحية لكل الصراعات القبلية والحروب الطائفية والمذابح العنصرية، التى أصبحت علامة مميزة للحياة على أرضها، بحيث عجزت المرأة الأفريقية عن التقاط أنفاسها؛ لكى تلتفت للتيارات الأدبية والفكرية الجديدة التى كانت بمثابة رفاهية لا تطمح إليها، باستثناء بعض الحالات النادرة لبلاد، ظلت مرتبطة بوشائج الحضارة الغربية مثل جنوب أفريقيا.

أما الكاتبات أو الأديبات العربيات، فوقعن فى الحيرة بين محاكاة الغرب فى قضاياه الثقافية والحضارية النابعة من بيئة مغايرة تمامًا، ومحاولة الخروج بقضايا المرأة العربية إلى الأضواء؛ بحثًا عن رؤى نسوية ذات خصوصية حضارية. لكنهن ظللن أسيرات هذه الحيرة، بحيث عجزت أعمالهن الأدبية عن إحداث تيار عميق فى خريطة الأدب العربى المعاصر، باستثناء بعض الأديبات اللاتى كسرن حاجز الحرج والحساسية، وتسلحن بالجرأة فى مضاهاة مطالب المرأة العربية بمطالب المرأة الغربية، رغم الهوة الحضارية العميقة والواسعة بين الجانبين، وإن كانت أعمالهن قد اكتسبت رواجًا تجاريًّا؛ نظرًا لجرأتهن فى تناول القضايا والحاجات الجنسية للمرأة العربية. ومع ذلك، فإنه من حق الكاتبات والأديبات العربيات أن نفرد لهن الفصل الأخير فى هذا الكتاب؛ لنرى إلى أى حد عانين من أزمة الأدب النسوى فى المنطقة العربية، بحيث لم يفلتن من محاكاة التيارات السائدة فى الغرب، فى حين عجزن عن بلورة الجذور الحضارية الضاربة فى المجتمعات العربية على اختلاف أنواعها. أما الأعمال الناضجة الجديرة بالدراسة والتحليل والتفسير، فلم تلق اهتمامًا يليق بها، ربما لندرتها أو لجديتها أو لعدم الارتياح لصراحتها أو جرأتها، من قبل النقاد التقليديين أو الإعلاميين المحافظين أو المتزمتين، ولذلك يصعب القول بأن هناك أدبًا نسويًّا عربيًّا بالمفهوم العلمى للمصطلح.

وسواء على المستوى العربى أو العالمى، فإن تيار الإباحية الجنسية كان يميل إلى التطرف؛ كى يفسح لنفسه مساحة لافتة للنظر على الخريطة الأدبية، خاصة بعد أن دخلت النسوية التقليدية فى طرق مسدودة وأصبحت تجتر ما نادت به من قبل. ولذلك أحدثت ما بعد النسوية مزيدًا من الشقاق والصراع بين تيارات النسوية التى سادت قبلها؛ مما أدى إلى تبديد الطاقة الفكرية للحركة فى جدليات عقيمة إلى حد كبير. فقد ارتبط الموقف النسوى المناهض للإباحية، بتأكيد أن إنتاج المواد الإباحية الفاضحة، سواء فى المسرحيات أو الروايات أو الأفلام أو المجلات أو الإعلانات، هو بمثابة انتهاك لحقوق الإنسان، بل إن الإباحية الجنسية فى حد ذاتها شكل مستمر لكراهية المرأة للرجل فى أقصى صورها تطرفًا، من منطلق أن هناك علاقة خفية بين استهلاك المواد الإباحية الفاضحة والانتهاك الجنسى للنساء فى الحياة الواقعية.

ووسط هذا التخبط، يبرز اتجاه آخر فى النسوية يتبنى موقفًا أكثر دهاءً، تمثل فى ظهور مواد إباحية فاضحة، تنتج خصيصًا من أجل جمهور النساء؛ خاصة فيما يتصل بمظهرهن اللافت للأنظار، وملابسهن التى تفضح أكثر مما تستر، من منطلق الترويج لفنون الإثارة التى تعتبر أرقى من الإباحية الجنسية، وهو تمييز يروج له أنصار المواد التى تتناول الجنس صراحة وعلانية، لمجرد استعراضه أمام عيون المشاهدين بهدف الإثارة المباشرة. فهناك بون شاسع بين الشخصية النسوية أو الممثلة، التى تتعرى فى غرفة نومها فى سياق درامى أو مسرحى أو سينمائى أو روائى له دلالة أشمل بكثير من المشهد فى حد ذاته، والراقصة التى تقدم فقرة خلع الملابس؛ لمجرد التعرى وإثارة غرائز جمهور من المشاهدين المراهقين أو المحبطين أو السكارى فى كباريه.

وقد زعم تيار ما بعد النسوية أنه يروج «الجديد» فى مجال القيم والسياسات المتعلقة بالجنس أو ما يسميه «الأنوثة الجديدة». وكان التيار النفسى قد تلقى ضربات موجعة من مغالطات ما بعد النسوية، التى تدعى أن النسوية تناصب الأسرة العداء، وأنها دمرت ما يراه معظم الناس الركيزة الأساسية للمجتمع الصحى والعادل، وأن النسوية هى مرض

المرأة التى ستظل غير متزوجة طول عمرها، وأن تحرير المرأة مصدر لسجل لا نهائى من الآفات الشخصية والاجتماعية والثقافية، رغم أن كثيرات من كاتبات الأدب النسوى أثبتن أن المرأة قادرة على التفكير بنفسها لنفسها، وأنها ليست محكومًا عليها أن تظل مقيدة بلا أمل، إلى عدم العقلانية وهيمنة الرأسمالية الأبوية، وتتجلى انتكاسة ما بعد النسوية فى دفاعها عن الرجال، الذين يرفضون الاعتراف بقمع المرأة، ويشجعون على الحرمان من الحرية، وتعطيل العدالة. وهكذا دون دليل دامغ وضجة مقنعة، تصور حركة تحرير المرأة لمن لا يفكرون، على أنها حركة تتسم بالطغيان ولا تمثل مطالب المرأة.

وهذا الكتاب الذى يحلل وينقد أبعاد الأزمة العالمية للأدب النسوى، يركز على نماذج مختارة من الأعمال المسرحية والروائية فى مختلف دول العالم، التى تناولت كل الحساسيات والتناقضات التى شابت نظرة المرأة إلى الرجل، سواء بالنسبة للكاتبات أو بالنسبة للشخصيات النسائية داخل هذه الأعمال.فهو دراسة أدبية نقدية أساسًا، وإن كانت تتضمن قضايا سوسيولوجية وسيكلوجية واقتصادية وثقافية وحضارية وفكرية وسياسية، توضح أن الشخصيات النسائية من خلال المواقف الدرامية التى تمر بها، لاتزال تجسد فى تصرفاتها عقد النقص المترسبة داخلها تجاه الرجل، سواء بوعى أو بغير وعى. والدليل على أنها لم تتخلص بعد من هذه الحالة المرضية، أنها تقضى كل وقتها وتبذل كل جهدها فى الهجوم والنقد والتفسير والتفكيك والاختلاف والتناقض فى محاولات مستميتة للقضاء على سطوة الرجل أو حتى بمجرد التخفيف من وطأتها، ولكنها لم تجسد إنجازات خاصة بها تمثل علامات فارقة فى تاريخ كفاحها، وبصمات تدل على قدرتها على تحقيق ندية متجددة فى مواجهتها للرجل، بصرف النظر عن وضعها كأنثى.

ومع ذلك فإن الأدب النسوى كان من أكثر الحركات الأدبية إثارة فى القرن العشرين. ولكن هذا لا يعنى أن كل الأهداف التى سعى إليها قد تحققت بالفعل، وإن كان قد نجح فى تحريك البركة الأدبية الراكدة إلى حد ما؛ ذلك أن الأمواج التى أحدثها لم تكن ثورية بالمفهوم الفكرى المنهجى، بل كانت ذات طبيعة دفاعية تسعى للتوافق مع

الواقع الذى تعمل فيه المؤسسات التى يهيمن عليها الرجل. ولذلك لم يتجاوز تعريف الأدب النسوى حدود الاضطهاد التقليدى للمرأة، عندما تجد نفسها لا تعامل على قدم المساواة، لا لأى سبب سوى كونها امرأة، فى مجتمع ينظم شئونه، ويحدد أولوياته حسب رؤية الرجل واهتماماته. وفى ظل هذا النموذج الأبوى تصبح المرأة هى كل ما لا يميز الرجل، أو كل ما لا يرضاه لنفسه؛ فالرجل يتسم بالقوة والمرأة بالضعف، والرجل بالعقلانية والمرأة بالانفعالية، والرجل بالفعل والمرأة بالقول، والرجل بالإيجابية والمرأة بالسلبية.. وهكذا.

وهذا الكتاب يهدف أساسًا إلى التحليل الفكرى والنقد الأدبى للأعمال المسرحية والروائية، التى جسدت السمات الأساسية للنسوية، والتى تميزت بالتغير وتعدد الأوجه والجوانب والملامح لدرجة التخبط والتناقض فى أعمال غير قليلة. وإذا كانت الأعمال الأدبية النسوية عمومًا توصف بأنها نضال فكرى وفنى لإكساب المرأة المساواة فى مجال الثقافة التى يهيمن عليه الرجل، فإنها لاتزال حركة فاقدة لأجندة نسوية، متفق عليها من نصيراتها. بل إن مفهوم المساواة بين الرجل والمرأة هو نفسه مفهوم مثير للجدل والخلاف، سواء من حيث معناه أو دلالاته أو طرق تحقيق هذه المساواة، أو حتى طبيعة العراقيل التى تعترض المرأة فى هذا الصدد.

وقد أدت هذه المعطيات إلى جعل هذا الكتاب لا يقتصر على التحليل لأعمال الأدب النسوى؛ لأنها أعمال لا يمكن أن تنفصل عن التاريخ الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى للنسوية. ومن هنا كانت ضرورة إلقاء الأضواء على المناظرات الجدلية والانشقاقات السوسيولوجية والتناقضات الفكرية، التى أدت بعد ذلك إلى ما بعد النسوية، التى كانت تجسيدًا للخاصية التى تميزت بها النسوية منذ نشأتها، وهى التنوع لدرجة التخبط. ولعل من أهم المهام الملقاة على عاتق هذا الكتاب، توضيح أن «ما بعد النسوية» لا تعد مؤشرًا يدل على اضمحلال الحركة النسوية بلا رجعة؛ لأنها فى حقيقتها ليست سوى أحدث حلقة من حلقات التخبط فى مسيرة الأدب النسوى التقليدى؛

خاصة وأن «ما بعد النسوية» هى النسخة الأدبية والفكرية، التى برزت فى أعمال الأديبات النسويات، اللاتى بهرهن تيار «ما بعد الحداثة» وأغرق بنظريات الاختلاف والهوية والتفكيك، واللاتى حسبن على هذا التيار بكل تهويماته وشطحاته وهواجسه.

ولا يتسع المقام للتعريف الوافى والتفصيلى بهذا الكتاب، الذى يستعين بعدد ضخم من الأعمال المسرحية والروائية، التى تمثل مختلف التيارات التى تنتمى إليها الكاتبات النسويات فى عالمنا المعاصر، وبما لا يقل عن خمسين مرجعًا أمريكيًّا وانجليزيًّا وفرنسيًّا وعربيًّا، سواء فى مجال النقد الأدبى أو الدراسات الثقافية والسوسيولوجية والسيكلوجية والاقتصادية والسياسية. ويتعشم المؤلف أن يصبح هذا الكتاب نافذة واسعة ومضيئة؛ ليطل منها كل النقاد والدارسين والمهتمين بهذا الموضوع، على خريطة الأدب النسوى العالمى؛ ليضعوا أيديهم على الطرق المسدودة التى تعتور مساراتها، والتى تسببت فى الأزمة الحادة التى يمكن أن تقضى عليه، إذا استمرت على هذا المنوال.

د. نبيل راغب

١ يوليو ٢٠١٢